التفسير السيكوبيولوجي لسقوط الحضارة عند غوستاف لوبون

أ.نبيل مسيعد

ملخص :
الحضـارة مـن المواضـيع المتجـددة، وسـتظل مركـز اهتمـام الفلاسـفة والمؤرخين و رجال السياسة، لاتصالها المباشر بواقع النـاس ومسـتقبلهم. وقد تنوعت الدراسات التي حاولت الكشـف عـن عوامـل سـقوطها، ومـن ذلك ما قام به المفكر الفرنسي غوستاف لوبون الذي تبين له بعـد ابحـاث اسـتمرت لسـنوات، أن الامـر يتعلـق بعوامـل نفسـية بيولوجيـة. وهـذا مـا نسعى لمناقشته في هذه المقالة.
كلمات مفتاحية: غوستاف لوبون؛ سقوط الحضارة؛ العوامـل النفسـية؛ النهضة؛ فلسفة الحضارة.

The role of psychobiological factor in civilisation’s extinction according to Gustave Le Bon

Abstract:
Civilization constitutes one of one of the main renewable subjects that may be viewed from several angles and dealt with by several scientific studies. Philosophers, historians, politicians and religious people are often interested in this issue. Their main objective is to define conditions which make it flowerishes or those which lead to its extinction. Among them, the french researcher Gustave Le Bon who determines that civilization in any age is submitted to psychobiological conditions. We try, in this article, to put the cover off the relation which links psychological factors to biological ones, and to show how they influence civilisation and cause its extinction.
Keywords: Philosophy, civilization, Gustave Le Bon 3, progress, renaissance. psychological factors.

مقدمة:

يمكن اعتبار سقوط الحضارات من أكبر الاحداث التي يتعرض لها البشر على مر التاريخ، بداية من الحضارات التي ظهرت في العراق القديم ومصر الفرعونية، مرورا بالحضارة اليونانية والرومانية، والحضارة الإسلامية والحضارات التي ظهرت في الشرق الاقصى وأمريكا الجنوبية. وقد حاول فلاسفة التاريخ البحث في العوامل الأساسية التي عصفت بتلك المدنيات، فمنهم من ردها لتوقف العناية الإلهية، ومنهم من نسب السقوط لعوامل موضوعية تتعلق بالبيئة الطبيعية، وذهب البعض الاخر الى القول بأن سقوط الحضارة امر طبيعي على أساس انها تمر بنفس المراحل التي يمر بها الكائن الحية، وهذا ما يعرف بالتفسير البيولوجي للحضارة، والبعض يرى أن الامر يتعلق بظاهرة التعاقب الدوري للحضارات.

الا أن التطور الذي عرفه علم النفس في القرن التاسع عشر، والذي كشف عن دور العوامل النفسية في توجيه سلوك الافراد، دفع بالمهتمين بدراسة الحضارة الى التفكير في سحب ذلك على ما يحدث في الأمم من تحولات، ومبررهم في ذلك أن المجتمع يتكون من الافراد وأن ما يصدق عليهم يصدق عليه. وهذا ما انتهى اليه المفكر الفرنسي غوستاف لوبون، الا انه وبوصفه طبيب له دراية بعلوم المادة الحية، حاول ايجاد علاقة بين هذه العوامل النفسية والعوامل البيولوجية من جهة، و بين ما يطرأ على الأمم من احداث من جهة أخرى، وهنا ظهر عنده ما يعرف بالتفسير السيكوبيولوجي للحضارة، ويقوم هذا التفسير على فرضية وجود طبع نفسي للشعوب في مقابل الطباع الفردية، وكما أن هذه الأخير ة هي التي تحدد سلوك الافراد حسب بعض مدارس علم النفس ، فإن الطبع النفسي للشعوب عند هذا المفكر هو الذي يحدد الكيفية التي تستجيب بها الامة للتحديات التي تعترضها ، وعليه فالمشكلة التي نعالجها في هذه المقالة هي: **كيف تمكن غوستاف لوبون من الجمع بن نتائج علم النفس وحقائق البيولوجيا**

في بحثه عن أسباب سقوط الحضارات، وما حقيقة الدور الذي يلعبه الطبع النفسي للشعوب في ذلك ؟

أولا: مفهوم الطبع

الطبع من المصطلحات الأساسية في علم النفس، ويظهر بشكل خاص لدى علماء الطباع، لكنه تكرر كثيرا في أعمال غوستاف لوبون**، سواء ما تعلق منها بعلم النفس الاجتماعي مثل كتابه "سيكولوجية الجماهير" أو مؤلفاته الخاصة بالحضارة. ويأتي المصطلح عنده في الغالب مقترنا بالنفس، فيقول الطبع النفسي دون أن يكتفي بلفظ الطبع، فهل هذه الإضافة تغير من معناه المتداول لدى علماء الطباع؟

الطبع في اللغة كما ورد في لسان العرب، هو الطبيعة والخليقة والسجية التي جُبل عليها الإنسان[1]. ويعرفه الجرجاني بقوله هو كل:" ما يقع على الإنسان بغير إرادة، وقيل الطبع بالسكون هو الجِبلة التي خُلق الإنسان عليها "[2]. ومن هذين التعريفين يتبين أن التمثل العربي للطبع يحيل إلى الصفات النفسية التي يتميز بها الإنسان، فيدخل معترك الحياة وهو محملا بهذه الصفات.

ولما كانت الصفات النفسية مرتبطة بالجسم، اجتهد البعض في إقامة علاقة بين الصفات الجسمانية للإنسان وصفاته النفسية، ومن ثم محاولة التنبؤ بما يصدر عنه من أفعال في المستقبل بناءً على تلك الصفات. وهنا ظهر ما يعرف بالفراسة، وهي من الفنون التي لاقت اهتماما خاصا في الثقافة الإسلامية، ومن ذلك أن محمد بن عمر بن الحسين الرازي (544 ـ 606 هـ 1150 ـ 1210م)، ألف رسالة بعنوان "الفراسة"، عرض فيها الطرق المتبعة في التعرف على طباع الناس، فكانت الفراسة عنده هي "عبارة عن الاستدلال بالأحوال الظاهرة، على الأخلاق الباطنة"[3]، وقصد بالأحوال

** - غوســتاف لوبــون Gustave le bon مفكر وعالم اجتماع وانثروبولوجي وفيلسوف الفرنسي، (1841 ـ 1931 م).

[1] - ابن منظور: لسان العرب المحيط ، المجلد الثاني، (بيروت ، دار لسان العرب ، 1970)، ص 567.

[2] - الجرجاني: التعريفات، ط 1 (المغرب مؤسسة الحسني ، 2006)، ص 126 .

[3] - محمد بن عمر بن الحسين الرازي: كتـاب الفراسـة، د ط (القـاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، 2006)، ص 9.

الظاهرة صفات الجسم، فقال :"إن الأحوال الظاهرة في الوجه قوية الدلالة على الأخلاق الباطنة، فإن للخجالة لونا مخصوصا في الوجه، والخوف لونا آخر، والغضب لونا ثالثا، وللفرح لونا رابعا، وهذه الألوان متى حصلت في الوجه فإنه يقوى دلالتها على الأخلاق الباطنة، والأحوال النفسانية"[1].

وفي الفكر الغربي المعاصر تحول موضوع التعرف على طباع البشر، إلى دراسة علمية، وذلك بالتركيز على ما يصدر عن الأفراد من سلوك وردود أفعال، ومحاولة ربط ذلك بالصفات الجسمانية. وأسفرت الدراسة عن محاولات لتصنيف الناس إلى زُمر، فوضِع لكل زمرة صفات نفسية معينة تسمح بالتعرف على ردود أفعالهم مستقبلا. وتركزت هذه الدراسات في فرنسا، ومن بين الأسماء التي أولت هذا الموضوع أهمية كبيرة نذكر ثيودول أرمان ريبو Théodule Armand ribot (1839 ـ 1916م) الذي كتب مقالا سنة 1892م بعنوان "في مختلف أشكال الطبع"[2]. إلا أن موضوع الطباع انتشر أكثر بفضل أبحاث عالم النفس الفرنسي روني لوسين René Le Senne (1882 ـ 1954م)، الذي حاول أن يرتفع بهذه الدراسة إلى مرتبة العلم، فألف كتاب "الكذب والطباع" (1930م). ثم كتاب "علم الطباع" (1945م)[3]، وفيه قدم تعريفا للطبع فقال:"هو مجموعة الاستعدادات الفطرية التي تؤلف الهيكل النفسي للإنسان"[4]، مؤكدا على الأصول الوراثية للطبع. وكان لوسين يحرص على ألا يقع في الآلية والحتمية، فوضع إلى جانب الطبع، الشخصية والذات، وهذه العناصر الثلاثة هي التي تؤلف الحياة النفسية عنده، دون أن ينفرد أيا منها بالتحكم في سلوك الإنسان، فقال:"في هذه المنظومة المؤلفة من هذه الحدود الثلاثة يمكن أن يشبه الطبع بآلة من الآلات، آلة كاتبة أو آلة عازفة، ويمكن أن تشبه الشخصية بالرسالة المكتوبة آو اللحن المعزوف يخرجان من الآلة، ويمكن أن تشبه الذات عندئذ

---

[1] - المرجع نفسه، ص 60.

[2] - سامي الدروبي: علم الطباع، المدرسة الفرنسية، د ط (القاهرة، دار المعارف، 1961)، ص 307.

[3] - المرجع نفسه، ص 308.

[4]- René Le Senne: traitè de caractérologie, 7e édition, (Paris, Presses Universitaires de France, 1963), p 16.

بالضارب على الآلة الكاتبة أو الآلة العازفة"[1]. ثم قام بتصنيف الناس إلى ثمانية نماذج.

ثانيا: الطبع النفسي عند لوبون

وبالعودة إلى غوستاف لوبون، فإننا نجده يستخدم مصطلحا مركبا، وهو الطبع النفسي caractère psychologique ويعني به مجموعة الصفات النفسية الموروثة، ويتألف عنده من المشاعر والعواطف التي كانت في أصلها أفكارا قابلة للتداول في صورة ألفاظ، ثم أخذت في التحول إلى مشاعر خلال أزمنة طويلة، وهذا ما عبر عنه بقوله: "يتألف ُالخلق *** من امتزاج مختلف العناصر التي يطلق عليها علماء النفس المعاصرون المشاعر عادة"[2]. وتَشَكُّل الطبع عند لوبون لا يختلف عن تشكل المجتمع، لأنه في الوقت الذي يتكون فيه هذا الأخير، تكون معالم طبعه النفسي قد اتضحت، على غرار ما يحدث لدى الفرد الذي لا يمكن الفصل بين نمو جسمه وتَشَكُّل صفاته النفسية.

وكما أن للأفراد طباع فإن للمجتمعات طباع أيضا تميزها عن بعضها البعض. وإذا كان لوسين يرى أن الطباع قابلة للتغير، فإن لوبون يرى أن طباع المجتمع ثابتة إلى حد كبير فقال:"تتفلت الصفات الخُلقية من سلطان التربية تفلتا تاما تقريبا"[3]. وعدم خضوعها لتأثير التربية والتعليم هو الذي يضمن ثباتها. وإذا كان لوسين يرى في الطباع مجرد استعداد ذهني، والاستعداد الذهني كما نعلم قد يتحقق وقد لا يتحقق، مانحا الذات بعضا من الحرية في التصرف بعيدا عن سلطة الطباع. فإن لوبون يقيد الذات ويمنح الطبع السلطة الكاملة للتحكم في سلوك الأفراد. والطبع عنده ليس مجهودا فرديا، بل هو مشروع شاركت في تكوينه أجيالا عديدة. كما أن نظرته للمشاعر ليست كما هي عند علماء النفس، فالمقصود بالعاطفة عندهم

---

[1]- ibid , p 17 .

[*]** - يفضل مترجم أعمال لوبون إلى العربية الأستاذ عادل زعيتر، تعريب الكلمة الفرنسية caractère)) بلفظ (الخلق) ربما لأنه يريد المحافظة على المعنى الذي رأيناه عند ابن منظور، مع أن الترجمة الحديثة أصبحت تستعمل كلمة الطبع وليس الخُلق .

[2] - غوستاف لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم، ترجمة عادل زعيتر، د ط (مصر، دار المعارف، 1957)، ص 49.

[3] - غوستاف لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم ، ص 49.

هي: الحب والشفقة. وقد يتسع المصطلح عندهم ليشمل عواطف أخرى مثل عاطفة الكره والبغض والحقد والحسد، وغير ذلك من العواطف السلبية[1]، في حين توسعت عند لوبون لتشمل كل الدوافع التي تحرك الأفراد والجماعات.

هذا من حيث طبيعة العواطف والمشاعر، أما من حيث مصدرها، فإن علماء النفس يعتقدون أنها تنشأ بعد ميلاد الطفل، بدافع من اللذة والألم، فتنشأ العواطف الايجابية تجاه من يحسنون معاملته، وتنشأ العواطف السلبية تجاه من لا يجد عندهم إلا الأذى[2]. لكن لوبون يرى أن المشاعر في ظهورها لا علاقة لها بالبيئة الاجتماعية، ولن تنتظر الميلاد حتى تبدأ في التشكل، لأن الطفل يأتي محملا بها في جيناته، فلا فرق عند لوبون بين الصفات الجسمانية والصفات النفسية، فكما يرث عن أبائه شكل الجسم ولونه يرث عنهم الصفات النفسية.

والمشاعر عنده لا تختلف عن الغرائز، سواء في مصدرها أو سلطتها، وتحكّمها في مصير الإنسان، ففي كتابه "الآراء والمعتقدات"les opinions et les croyances قال: "من يعرف كيف يتصرف في مشاعر الناس، لا يلبث أن يصبح سيدهم "[3]، ويعتقد هذا المفكر، أنه لو عرفنا حقيقة هذه الصفات وتغلبنا عليها، سنكون بذلك قد حصلنا على ما كنا نعزوه للآلهة قديما[4]. لأنها هي المسؤولة عن كل تقدم أو تخلف يطرأ على المجتمعات، وهي التي تؤجج النشاط وتُلهم الإبداع. ومن هنا تأتي أهمية المشاعر في مسيرة الأمم، ولا يمكن القول أنها تحولت إلى طبع نفسي للمجتمع إلا إذا أمكن ملاحظة نتائجها لدى السواد الأعظم من أفراده، أو ما يعرف عنده بالمثال المتوسط للأعراق Les types moyens des races.

وقد تدعمت أراء لوبون في الطبع وسلطة المشاعر، بالأبحاث التي قام بها العلماء على مستوى الدماغ البشري.

---

[1] - عبد الرحمن محمد عيسوي: علم النفس الفسيولوجي، دراسة في تفسير السلوك الإنساني، د ط (مصر، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1989)، ص 137

[2] - المرجع نفسه، ص 139 .

[3] - غوستاف لوبون: الآراء والمعتقدات، ترجمة عادل زعيتر، ط 2 (القاهرة، المطبعة العصرية، 1946) ص 70.

[4] - المصدر نفسه، ص 61.

فذكر دانييل جولمان Daniel Jay Goleman في كتابه الذكاء العاطفي(1946م) أن الأبحاث في الدماغ كشفت عن جزء فيه يعرف باسم الاميجدالا Amygdala ، ويَعتقد مكتشفه أن هذا الجزء هو المسؤول عن الأفعال غير الواعية التي تحفظ حياة الكائن الحي من دون الحاجة إلى التفكير، ويرى أن الإنسان الحالي سيواجه مشاكل الحداثة بنفس العواطف والمشاعر التي كان يستعملها الإنسان في عصوره الأولى. ولا ينحصر عمل هذه الإلية في توجيه الوظائف الحيوية، بل هي التي تمكن الإنسان من مواجهة الطوارئ، وهي التي تشد من عزمه للقيام بأمور عظيمة ومن دون هذا الجزء في الدماغ لا يحسن الإنسان عملا[1].

إن الطبع النفسي عند لوبون، هو مجموعة المشاعر والعواطف الموروثة التي تضبط حياة الإنسان، وتمده بأسباب القوة والإبداع، ولذلك هو على اتصال مباشر بظهور الحضارة وانهيارها. والمجتمع الذي يسعى للتقدم ينبغي أن يتوفر على طبع نفسي مليء بالمشاعر الملهبة للحماس لدى طبقاته المتوسطة. ومن هذه المشاعر: الثبات، والنشاط، وقابلية ضبط النفس، واحترام القواعد التي تقوم عليها حياة المجتمع[2]. بالإضافة إلى العناد، والاستعداد للتضحية في سبيل مثال عال، والإرادة القوية، والهمة العالية، وقوة المبادرة دون انتظار مساعدة من أحد، والاستقلالية، والشعور الديني الشديد، واحترام الواجب، والتفاؤل التام، والاعتداد بالأمة، بالإضافة إلى القدرة على التمييز بين ما هو عملي وايجابي وما هو غير ذلك، وتجنب المباحث الوهمية، والابتعاد عن الجدل في الدين، ومنها أيضا احترام العادات احتراما دينيا، واحتقار الضعف، وتَمثُّل النظام في السلوك. وهذه الصفات لا تُدَرّس حسب لوبون[3]، وحتى لو تم تدريسها فلا قيمة عملية للمجهودات المبذولة لأجل تعلمها. لأن التعليم لا يمكّنها من التغلغل في أعماق النفس، وان لم تُدرك هذه الصفات تلك الأعماق فلن تتحول إلى طبع نفسي فعال أبدا. وهذا لا يعني انه يرفض التعليم، وإنما يرفض

---

[1] - إبراهيم فريد الدر: الأسس البيولوجية لسلوك الإنسان، ط 1(بيروت، دار الأفاق الجديدة، 1983)، ص 90.

[2] - غوستاف لوبون: الآراء والمعتقدات، مصدر سابق ،ص 49 .

[3] - غوستاف لوبون: اختلال التوازن العالمي، ترجمة، صلاح الدين وصفي، د ط (مصر، مطبعة العرب للبستاني، 1928)، ص 360 .

بعض المناهج المعتمدة فيه، فكان بذلك اقرب لجان جاك روسو Jacques RousseauJean- (1712 ـ 1778م) الذي نصح في كتابه إميل، بضرورة مراجعة طرق التعليم ومضامينه[1].

إذ لا فائدة ترجى من المحاولات التي يهدف أصحابها لزرع الصفات النفسية الحسنة في النشء، عن طريق البرامج التعليمية التي تعتمد على الحفظ، ولا تستهدف وصول المواد المقررة إلى أعماق المتعلم، إن هذه البرامج لا تفيد إلا في تنمية الذاكرة، وهي قدرة غير مهيأة للتعامل مع الأوضاع الجديدة. ولا معنى عنده لجلب مناهج تعليمية أثبتت كفاءتها في بعض المجتمعات، لأن التعليم عنده لن يكون فعالا ومؤثرا إلا إذا كان ملائما لعادات التلميذ ويتماشى مع طباعه النفسية[2]. ويرى أن الإصرار على استخدام هذه المناهج التي تتعارض مع عادات المتعلمين لن تتسبب إلا في إرباك الطبع النفسي لهذه الأمة، ويجرها في نهاية الأمر إلى مستوى ادني من المستوى الذي كانت قد تصل إليه لو تُركت وشأنها[3]. وشاهده على ذلك ما لاحظه في الهند، فقال:" لا تجد في التاريخ مثالا أوضح من مثال الهند في إثبات الخطر الذي ينجم عن منح أمة تربية غير ملائمة لمزاجها النفسي، فقد أدى تطبيق التربية الأوروبية على الهندوس إلى تقويض ثقافته السابقة التي تَمَّت له مع الزمن، وإلى إحداث ما لم يعرفه من الاحتياجات، من غير أن تَمُنَّ عليه بوسائل قضائه، وإلى جعله بائسا عدوا لمن طبقوها عليه"[4]. فكان يتعامل مع انتحال مناهج التعليم بكل حذر، بل ويعتبره خطرا محدقا بالأمة، إن لم تلتزم فيه الشروط الضرورية، خاصة ما يتعلق بالمخزون الوراثي. إن التعليم الذي لا ينسجم مع طباع المتعلم قد يكسبه طلاءً خارجيا يبدو معه للناضر أنه اكتسب صفات نفسية جديدة، في حين عمقه مازال محافظا

---

[1] - جون جاك روسو: إميل، ترجمة نظمي لوقا ، د ط (القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1958)، ص 24.

[2] - غوستاف لوبون: روح التربية ، ترجمة عادل زعيتر ، د ط (القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، 1949)، ص 410.

[3] - غوستاف لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم، مصدر سابق ، ص ص 85 ـ 86.

[4] - غوستاف لوبون: حضارات الهند، ترجمة ، عادل زعيتر ، ط 1، (القاهرة ، دار العالم العربي ، 2010)، ص 699 .

على أصله، فليس من السهل تجاوز ثقل عشرات القـرون فـي سنين معدودة[1].

إذن التعليم الناجح عند لويـون، هـو الـذي يتلاءم مـع القاعـدة الوراثية لأفراد المجتمـع، ويكـون منسـجما مـع طبعـه النفسـي، وينبغي أن يستهدف تنمية الإرادة وروح المبـادرة عنـد المتعلـم، أما إذا كان يستهدف تعزيز القدرة على الحفظ، فخطره عظيـم على مستقبل الأمة، وهذا ما لاحظه لوبون على التربية والتعليم في بلده فرنسا، لقد وجد أن العملية التربوية تقـوم علـى خطـأ نفسـي فـادح، حيـث يطلـب مـن المتعلميـن اسـتذكار الكتـب المدرسية بهدف تطوير الذكاء، وهذا لن يتحقق عند لوبـون، لأن التلميـذ يبتلـع مضـمون الكتـب دون هضـمها[2]. وكـان علـى المؤسسات أن تخلق في المتعلم الإرادة القويـة الـتي يتخطـى بهـا كـل مـا يعترضـه مـن عوائـق فـي مختلـف ميـادين الحيـاة، والابتعاد عـن المناهـج الـتي تعمـل علـى تضـخيم الـذاكرة لـدى المتعلمين فقط، فالتعليم الناجـح عنـده هـو ذلـك التعليـم الـذي يحول ما هو شعوري إلى ما هو لاشعوري[3]. وهنا يصـبح المتعلـم يقوم بأعماله بشكل تلقائي دون تصنع أو تكلف أو تذمر.

ثالثا: الطبع النفسي للشعوب واللاشعور

إن المشـاعر سـواء كـانت مسـتفادة وراثيـا أم مكتسـبة عـن طريق التعليم لن يكون لها أية أهمية عند لوبون مـا لـم تسـتقر في اللاشعور، وفي هذه الحالة فقط يمكنهـا ممارسـة سـلطتها على الفرد الذي يحملهـا، شـأنها فـي ذلـك شـأن الغرائـز، الـتي تدفع الكـائن الحـي للقيـام ببعـض الحركـات والأعمـال بطريقـة غامضة[4]. كذلك المشاعر تتدخل مـن هنـاك فـي تـوجيه سـلوك الإنسان دون أن يُتَفَطن لدورها[5]. واللاشعور لم يكـن معروفـا في الدراسات النفسية التقليدية، التي كانت لا تفصل بين مـا هـو

---

[1] - غوستاف لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم، مصدر سابق ، ص 53.

[2] - غوستاف لوبون: سيكولوجية الجماهير، ترجمة هاشم صالح ، ط 3 (بيروت ، دار الساقي ، 2011)، ص 108.

[3] - غوستاف لوبون: روح التربية، مصدر سابق ، ص 306 .

[4] - كارل غوستاف يونغ: البنية النفسية عند الإنسان، ترجمة نهاد خياطة، د ط (دمشق، دار الحوار للنشر والتوزيع، 1994)، ص 64.

[5] - Gustave Le Bon : Enseignements psychologiques de la guerre européenne (Paris, Ernest Flammarion Éditeur, 1915) , p25

نفسي وما هو شعوري، لكن مع بداية القـرن العشـرين، تمكـن علماء النفس بمـا تـوفر لهـم مـن دلائـل عقليـة وتجريبيـة، مـن اكتشاف قسم كبير في الحياة النفسية لم يثير الانتباه مـن قبـل لأنه يتواجد في منطقة بعيدة عن الوعي[1].

وكان غوستاف لوبون من العلمـاء الـذين سـاهموا فـي إنـارة هـذه الجـانب المظلـم مـن النفـس الإنسـانية، مـن خلال كتـابه السنن النفسـية لتطـور الأمـم(1894م)، حيـث أشـار إلـى هـذا الجانب بكل وضوح، فقال:"إن المبادئ الـتي تسـير الحضـارة لا تكـون مـؤثرة إلا بعـد هبوطهـا مـن دوائـر الشـعور إلـى دوائـر اللاشعور"[2]. وتتفرع الحياة اللاشعورية عنده الى شكلين، فهناك اللاشـعور العضـوي ويعـرف عنـده بمنطـق الحيـاة، واللاشـعور النفسي. ويشمل الأول وظائف الأجهـزة العضـوية مثـل الجهـاز الدموي والجهاز التنفسي، أما اللاشـعور النفسـي فـإنه لا يـزال عالما مجهولا، إلا انه يمثل السبب الرئيسي فـي كـل تصـرفاتنا، وآمـل لوبـون أن تسـاعد العلـوم التجريبيـة، فـي الكشـف عـن القوانين المتحكمة فيه مستقبلا. ولـم يخـف سـيغموند فرويـد ــ الذي اقترن اسمه باللاشعورـ اهتمامه بأبحاث غوسـتاف لوبـون في هذا المجال، وكان يقارن النتائج التي يصل إليها، بمـا انتهـي إليه من أراء[3].

إلا أن لوبــون كــان يركــز علــى الجماعــات، وبالتــالي كــان اللاشعور عنده جمعـي، فـي حيـن فرويـد كـان يهتـم باللاشـعور الفردي، وفكرة اللاشعور الجمعي ظهرت أيضا في أعمال يونغ، خاصـة فـي كتـابه البنيـة النفسـية عنـد الإنسـان[4]، أيـن وظـف مصطلح الخافية الجامعة أو اللاشعور الجمعي. وقد يكـون لكـل من لوبون وفرويد ويونغ نصيب فـي تـوجيه الانتبـاه لهـذا الجـزء من الحياة النفسية، خاصة وأنهم ينتمون إلى عصر واحد وثقافة واحدة. ومهما يكن فاللاشعور عندهم شرط أساسي في فعاليـة ما يتوفر عليه الإنسان من أفكار وما يصدر عليه من سلوك.

---

[1] - حلمي المليجي: علم النفس المعرفـي ، ط 1 (بيـروت ، دار النهضـة العربية ، 2004) ، ص . 31 .

[2] - غوستاف لوبون : السنن النفسية لتطور الأمم ، ص ص 144ـ 145.

[3] - سيغموند فرويد: علم نفس الجماهير، ترجمة جورج طرابيشي، ط 1، (بيروت، دار الطليعة للطباعة ، 2006)، ص 29.

[4] - كارل غوستاف يونغ: البنية النفسية عند الإنسان، مرجع سابق، ص 77.

وإذا كـان اكتشـاف اللاشـعور وسـيلة لعلاج بعـض الأمـراض النفسية عند أصحاب التحليل النفسـي، فـإن لوبـون كـان يَنظـر إليه باعتباره الخزان الحقيقي للمشاعر التي تدفع الإنسان إلــى القيام بأعماله وهذا ما عبر عنـه فـي قـوله:" تتجـرد الجماعـات دائما عن الشعور بعملها، وقد يكون هـذا هـو السـر فـي قوتهـا، على أنّا نشاهد في الطبيعة أن الذوات الخاضعة لمجـرد الإلهـام تأتي بأعمال دقيقة يحار الإنسان في معرفة جليل صـنعها، ذلـك أن العقل جديد في الوجود الإنساني، وفيه نقص كبير فلا قــدرة لنا به على معرفة قوانين الأفعـال اللاشـعورية"[1]. وهـذا بعـد أن لاحـظ وجـود فـرق كـبير بيـن قيـام الفـرد بأعمـاله عـن تـروي وتخطيط وتفكير، وإتيانه إياهـا عـن لاوعـي. فـإذا كـانت الأولـى تتطلب بدل مجهودا فكريا معقدا، فإن النوع الثاني من الأعمال، يتميـز بالسلاسـة والسـهولة والفعاليـة، بالإضـافة إلـى الإتقـان، ويرى أن اغلب أفعال الإنسان تنتمي إلى النوع الثـاني، فقـال:" دل العلم الحديث على أن الحوادث اللاشعورية تمثل في الحياة دورا أهم من الدور الذي تمثله الحوادث العقلية في الغالب"[2].

إن المجتمع الذي يتوفر علـى صـفات نفسـية فعالـة مترسـبة في اللاشعور الجمعي عند هذا المفكـر تنعكـس بالإيجـاب علـى كل ما يقوم به أفراده، " فلا تلبـث ممارسـة إحـدى الصـنائع أن تصبح سهلة، بعد أن يصير اللاشعور مديرا لها "[3]. وهذا يعنـي أن الإبداع الحضاري عنده، لا علاقة لـه بحسـن التعلـم، أو صـلاحية الأنظمة السياسية والاقتصادية، فكل هذا يعتبره نتيجة لما يتوفر عليـه أفـراد المجتمـع مـن المشـاعر والأفكـار المسـتقرة فـي اللاشـعور وليـس سـببا. إن الشـعب الـذي يشـتمل علـى هـذه الصفات سيقوم بأعماله على أحسن وجه، مثلما هو الوضع فـي عالم النمل والنحل، فهـذه المخلوقـات تقـوم بأنشـطتها بشـكل مثالي رغم افتقارها لعنصر الذكاء.

هذا التصور الذي يربـط الحضـارة بـالطبع النفسـي المـوروث والمستقر في اللاشعور، جعل لوبون يستبعد أن يتحول الإنسان في بعض الدول الإفريقية والأسيوية متى شاء إلى عنصر فعــال

---

[1] - غوستاف لوبون: روح الاجتماع، ترجمة احمد فتحي زغلول باشـا، د ط (الجزائر، وزارة الثقافة الجزائرية ، 2007)، ص 6.

[2] - غوستاف لوبون : الآراء والمعتقدات. مصدر سابق، ص 24.

[3] - المصدر نفسه، ص 25.

على غرار نظيره في ألمانيا وانجلترا. ويرى أن هذا الحكم ليس له صلة بالتمييز العنصري، لأن الانجليزي م ا ك ان ليتوفر على تلك الصفات النفسية المبدعة، لولا استناده لقاعدة وراثية تمتد لقرون عديدة، ساهمت في تكوينها الأجيال السابقة التي مر بها مجتمعه، والآمر مُتاح لكل الأجناس لكن عليهم أولا بداية المسير، والعمل على اكتساب هذه الصفات، والاستمرار في تحسينها وصقلها عبر أجيال متعاقبة، إلى أن يأتي جيل يضارع الانجليز الحاليين في طباعهم النفسية[1]. وهنا تعفي الوراثة الإنسان من إعادة تجارب أسلافه، وما يترتب عن ذلك من إهدار للوقت دون طائل، وهذا ما ذهب إليه فرويد أيضا في قوله:" لو كانت السيرورات النفسية عند جيل بعينه، لا تنتقل إلى جيل آخر، ولا تتواصل لدى جيل آخر، لكان على كل جيل أن يعيد من جديد تدرجه وتمرنه على الحياة، مما كان سينفي كل تقدم وكل تطور"[2]. ثم أن القول بوراثة الطباع واستقرارها لا شعوريا في الحياة النفسية عند غوستاف لوبون، قد يؤيده التوزيع غير المتساوي لمراكز الحضارة والإبداع في العالم، وعليه فإن أسباب النشاط الذي يمارسه الإنسان في نظر هذا المفكر، تقبع دائما في اللاشعور الجمعي، فيقوم بأعماله بطريقة لا تختلف كثيرا عن الأعمال التي تستدعيها غرائزه. لذلك كان ينصح رجال السياسة والحكام بضرورة الاهتمام بهذه الدوافع المستترة، لأنها هي التي تقود الأفراد والحشود[3]. وبالتالي لا مجال للقول بالنهضة المفاجئة حسب هذا التصور، فكل ما تعرفه الأمة من تقدم أو تأخر يعود لدوافع مستقرة في أعماق المجتمع.

رابعا: طباع الشعوب بين الثبات والتغير

انتهينا إلى أن الطبع النفسي عند لوبون هو مجموعة من الصفات النفسية التي يتوارثها أفراد المجتمع من الآباء والأجداد، والمستقرة لا شعوريا في أعماقهم، ومن هناك تمارس سلطتها وتؤثر في كل ما يصدر عن أفراده من أعمال،

---

[1] - غوستاف لوبون: السن النفسية لتطور الأمم، مصدر سابق، ص 53.

[2] - سيغموند فرويد: الطوطم والحرام، ترجمة جورج طرابيشي، د ط (بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، د ت) ، ص 206.

[3]- Gustave Le Bon ,La Révolution française et la psychologie des révolutions (Paris, Ernest Flammarion Éditeur, 1916) , p 128 .

وفي هذه الحالة نكون أمـام صـفات نفسـية وراثيـة ولاشـعورية تميل إلى الثبات، وميلها للثبات حسب لوبون ناتج عـن ظهورهـا البطيء[1]. لكن إذا كان الطبع ينزع إلى الاستقرار والثبـات، فـإن العالم من حوله في تطور مستمر، وهنا تبرز مشكلة التكيف مع الأوضاع الجديدة، وقد كان لوبون على وعي بهذه المعضلة التي قد تشكل خطرا على الأمة، فقال:" يمنح ذلك الثبات في الروح القومية للأمة قوة عظيمة، ولكنه قد يصـبح شـؤما عليهـا إذا مـا اسـتقر كـثيرا، إن الأمـم الـتي لا تتكيـف مـع مقتضـيات العيـش الجديد تنحط لعدم المرونة"[2]. وهنا أصبحت المرونـة ضـرورة لا يمكن تجاهلها، ولو غابت فإن الطبـع يتكلـس ويتحجـر، ويتوقـف عن اكتساب الأفكار الجديدة، وهذا يمنع تجدد المشاعر القديمة التي لم تعد قادرة على تحقيق التكيف المطلوب[3]. وكل محاولة لتفـادي هـذا المصـير المأسـاوي للمجتمـع سـتكون محفوفـة بالمخاطر. لأن الصفات النفسية للمجتمع ليست بنـت اللحظـة، وإنما تعود لقرون عديدة، مرت بها الأجيال المتعاقبة، فليس من السهل التخلـي عنهـا واسـتبدالها بصـفات أخـرى تكـون ملائمـة ومنسجمة مع التطور الحضاري في أيام أو بضع سنين.

لهـذا يـرى لوبـون أن التراكمـات الـتي تُكـوّن روح أي شـعب وتجعلها ثابتة وصلبة، ينبغي ألا تصل إلى درجة من الثبات، تغلق معها أبواب المرونة، وتمنع اكتساب الجديـد والمفيـد. وإذا كـان ثبات الطبـع النفسـي مطلوبـا لأجـل اسـتمرار تَمَيُّـز الأمـة عـن غيرهـا، فـإن المرونـة ضـرورية أيضـا لأنهـا تحقـق التكيـف مـع التغيرات الناتجة عـن التطـور الحضـاري. والفشـل فـي تحقيـق التوازن بين الثوابت والمتغيرات قد يجر المجتمـع إلـى الانهيـار، وخير شاهد على ذلك عند لوبون، هـو انقـراض بعـض الكائنـات الحية، لقد حدث ذلك بسـبب فشـلها فـي التكيـف مـع الأوضـاع الجديدة، والإنسان عنده لا يشد عن هذه القاعدة.

وهنا يكون المجتمع أمام رهان كبير، واستمراره مرتبط بمدى نجاحه في التوفيـق بيـن الصـلابة والمرونـة، بحيـث يتمكـن مـن المحافظة على الصفات النفسية التي تمنحه هويته، وفي نفـس

---

[1] - غوسـتاف لوبـون: حضـارة العـرب، ترجمـة عـادل زعيـتر، ط 1 (القاهرة ، دار العالم العربي ، 2009) ، ص 60.

[2] - غوستاف لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم، مصدر سابق، ص 17.

[3] - المصدر نفسه، ص 17.

الـوقت تسـاعده علـى تجـاوز المسـتجدات الطارئـة، الـتي لـم تصطدم بها أجياله السابقة. وهذا التحدي يمكـن مـواجهته وفـق الحكمة القائلة لا إفراط ولا تفريـط، الـتي تمنـع رجحـان الكفـة بشـكل كـبير لأحـد طرفـي المعادلـة، واقصـد بـذلك الثبـات والمرونة.

ويرى لوبون أن صفات المجتمع يمكن تقسـيمها إلـى نـوعين: صفات نفسية ضرورية ميزتها الثبات، تعمل على حفظ الميزات الأساسـية للمجتمـع، مثـل الشـجاعة والإرادة القويـة. وصـفات نفسية ثانوية مصدرها البيئة، وهـي صـفات قابلـة للتجـدد بـدون انقطاع. ولفهم ذلك وظف مثال استقاه من الصفات التي تظهر على الثوار وأبرزها صـفة العنـف، هـذه الصـفة مهمـا تعـاظمت فإنها حسب لوبـون لـن تتسـبب فـي إحـداث تغييـر عميـق فـي الطبع النفسي العـام للمجتمـع، لأنهـا لا تمـس إلا السـطح، وأن المجتمع سيعود لطبيعته عندما يستقر الوضع[1]. وهـذا مـا حـدث للفرنسيين إبان ثورة 1789م فقال:" إن كل التشكيلات العقلية أو الذهنية تحتوي علـى خصـائص يمكنهـا أن تـبرز إلـى السـطح تحت تأثير التغيير المفاجئ للبيئـة، وهكـذا يمكننـا تفسـير وجـود برجوازيين وديعين في صفوف الثوار الفرنسيين الهائجين، وكان يمكن لهؤلاء البرجوازيين أن يكونوا في الحـالات العاديـة كُتّـاب عدل مسالمين"[2].

إنهم انخرطـوا فـي صـفوف الثـوار، ثـم عـادوا إلـى سـيرتهم الأولى بمجرد زوال هـذا الطـارئ. لأن الطبع الـذي هـو أسـاس روح الشـعب كمـا قـال لوبـون:"لـم يتبـدل وإذا تنكـر الخلـق caractère قليلا فإنه لا يلبث أن يعـود كما كان"[3]. ومـن بيـن الشعوب التي نجحت في التوفيق بيـن صـلابة العـرق ومرونتـه، يذكر لوبون روما في العصور القديمة وانجلترا فـي عصـره[4]. إن المجتمع الانجليزي عنده بقى محافظا على طباعه النفسـية، رغـم ما يبدو عليه من تطور في كل المجـالات، وقـد شـبهه بـالنهر الذي نظن انه يتغير عندما نرى حركـة الميـاه فيـه، لكنـه فـي

---

[1] - غوستاف لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم، مصدر سابق، ص 183.

[2] - غوستاف لوبون: سيكولوجية الجماهير، مصدر سابق، ص 55.

[3] - غوستاف لوبون: روح الثورات والثورة الفرنسية، ترجمة عادل زعيتر، ط 2 (مصر، المطبعة العصرية، 1934)، ص 174.

[4] - Gustave Le Bon :La Révolution française et la psychologie des révolutions, p 49 .

الحقيقة ثابت في سيره بثبات ضفتيه، وضفتي الأمة عند لوبـون هي صفاتها النفسية الموروثة، مثل العقائـد والعـادات والقـانون والأخلاق والتربية، وهـي الصـفات الأساسـية الـتي قلمـا يلحقها تغيير[1].

لكن إذا حـدث التغيـر فـي الطبـاع الأساسـية للمجتمـع، فـإن لوبون يعتقد أنه ليس في أحسن أحواله، بل هو في طريقه إلى الزوال. وقد لخـص لوبـون هـذه العمليـة المعقـدة فـي قـوله:" الواقع أن اكبر همين للإنسان منذ أن وجـد علـى سـطح الأرض، كان يتمثلان في خلق شبكة من التقاليـد أولا، ثـم فـي تـدميرها عندما تكون أثارها الايجابية والنافعة قد استنفِدت، وبدون تقاليد ثابتــة، لا يمكــن أن توجــد حضــارة، وبــدون الإزالــة البطيئــة والتدريجيـة لهـذه التقاليـد لا يمكـن أن يوجـد تقـدم، والصـعوبة تكمن في إيجاد توازن عادل بين الثبات والتحول وهذه الصـعوبة ضـخمة جـدا"[2] ويمكـن تلمـس صـعوبة التوفيـق بيـن الصـلابة والمرونة بمقارنتها مع محاولة التوفيق بين الأصـالة والمعاصـرة التي تعتبر حلا مناسبا لتطور واستمرار الأمم.

خامسا: الطبع النفسي وانهيار الحضارة

يرى لوبون أن الطبع النفسي الذي كان مصدرا لنشاط أفراد الأمة، يكون في طريق الزوال عندما يصبح هؤلاء الأفراد لا يخفون تدمرهم من أوضاعهم، ويعبرون عن غضبهم بمختلف أنواع الاحتجاج، مطالبين بالحقوق دون القيام بواجباتهم، وتنمو بينهم الأثرة والأنانية، ويتحول اهتمامهم الذي كان مركزا حول المصلحة العامة للأمة، إلى الاهتمام بالذات، والتمحور حولها فقط. وهنا تعم اللامبالاة، وتفقد المبادئ القديمة معانيها، وتزول روح الإقدام، وتتراجع المبادرة الفردية وتخور الإرادة عند أفراد المجتمع[3]، وهذا يعني أن الطبع النفسي الذي شيد الحضارة في طريقه نحو التحلل الأمر الذي يؤدي لانهيار الحضارة.

ومن علامات انحلال الطبع النفسي عند لوبون، عدم اكتفاء الأفراد بالحاجيات الأساسية، واهتمامهم بالكماليات. ثم يتسرب

---

[1] - ibid, p 140.

[2] - غوستاف لوبون: سيكولوجية الجماهير، مصدر سابق، ص 111.

[3] - غوستاف لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم، مصدر سابق، ص ص 172 ـ 173.

الخلل إلى العلاقات الأسرية، فتتراخى الروابط بين أفرادها لتنحل بعد ذلك، وتنطفئ شعلة الإيمان عندهم مهما كانت طبيعته. وتتعقد المشكلة أكثر عندما يتسلل الضعف إلى الشباب وهم رجال المستقبل، فيتملصون من المسؤولية، مقتنعين بالوظائف الحكومية، متجنبين الأعمال التي تتطلب النشاط والتفكير وبدل الجهد. ويرى لوبون أن أفراد المجتمع في هذه المرحلة يعجزون عن الاستقلال الذاتي، وتتراجع روح المغامرة لديهم، ويزول الانضباط الذي كان يميزهم[1].

وإذا عمت هذه الظواهر وشملت اغلب أفراد المجتمع، سينحل الطبع النفسي الذي استغرق تكوينه زمنا طويلا، وتفقد الأمة أكثر فأكثر كل ما كان يصنع تماسكها ووحدتها وقوتها. وتحل الأثرة والأنانية الفردية محل التضحية والعمل لصالح الجماعة وهنا تكون قد أدركت مرحلة الانحلال، لتتحول إلى ركام من الأفراد لا رابط بينهم [2]، ويدخل المجتمع في مرحلة ما يعرف بالإنسان ـ الجمهور أو الشعب ـ الجمهور، بتعبير الفيلسوف الاسباني خوسه أورتغا إي غاسيت José Ortega y Gasset (1883ـ 1955 م) في كتابه " تمرد الجماهير"(1830 م)، وهو مصطلح يشير من خلاله، إلى درجة الانحطاط التي ينحدر إليها الأفراد، في مرحلة التدهور الحضاري، كما يعني به الإنسان السوقي الذي ينكر الاعتراف بمرجعيات اعلي منه[3].أو يفقد طاقته الإبداعية بتعبير ارنولد توينبي[4].

وفكرة فقدان الصفات النفسية المحفزة للإبداع الحضاري نجدها أيضا عند المفكر مالك بن نبي خاصة عندما تحدث عن الإنسان المستنفذ حضاريا في العالم الإسلامي، والذي بدأ يظهر عنده في فترة ما بعد الموحدين.[5] مشبها إياه بجزيء الماء، الذي يكون يحتوي على "طاقة مذخورة معينة قابلة لتغذية عمل نافع، إذا ما استعملتها أجهزة الخزان، في الري أو

---

[1] - المصدر نفسه، ص ص 176 ـ 177.

[2] - غوستاف لوبون: سيكولوجية الجماهير، مصدر سابق، ص 199.

[3] - خوسه أورتغا إي غاسيت: تمرد الجماهير، ترجمة علي إبراهيم أشقر، ط 1(دمشق، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، 2011) ص 141.

[4] - ارنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، د ط (القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2011)، ج 1، ص 413.

[5] - مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 5 (دمشق ، دار الفكر، 1986)، ص 36 .

في إنتاج الكهرباء، غير أن هذا الجزيء يصبح قاصرا عن تأدية العمل نفسه منذ إن يصبح خارج الخزان لأنه يكون قد فقد طاقته المذخورة، وهو ما يعطينا صورة للإنسان المنحل حضاريا أو الإنسان الذي خرج من دورة الحضارة"[1]، والخزان في هذا النص يقابل الحضارة. وكما يمكن لهذا الجزيء أن يستعيد طاقته عن طريق إتباع مراحل معينة، فإن الفرد المسلم، يمكنه استعادة طاقته، إذا عاد إلى المنبع الذي نهل منه السلف، يقول بن نبي " إن نهضة مجتمع ما تتم في الظروف العامة نفسها التي تم فيها ميلاده"[2]. لكن لوبون يرى أنه إذا فقدت الأمة القدرة على الإبداع، فلا سبيل لإعادتها على المدى القصير. ولهذا كان يدعو إلى حفظ الطاقة الإبداعية لدى أفراد المجتمع بكل الطرق الممكنة[3]. فكان في تفسيره لسقوط الحضارة أقرب للتصور الذي قدمه داروين حول انقراض بعض الكائنات الحية.

سادسا: تحلل الطبع النفسي للمجتمع

خلصت نظرية التطور إلى أن التغير الذي تعرفه الكائنات الحية تحكمه قوانين بيولوجية، ويتطلب مدة زمنية كافية، وفي هذا قال داروين:"إذا استطاع أحد، أن يثبت، أن أي عضو من الأعضاء المهذبة التركيب، والراقية التكوين، قد أمكن أن يستحدث من غير أن يكون لتحول الصفات التدريجي على مدى الأزمان يد في استحداثه، فإن مذهبي لا محالة ينهار من أساسه، ولكن لحسن الحظ، قد أعياني البحث، ولم اعثر على حالة واحدة تثبت ذلك"[4]. ثم خلص لوضع قوانين، منها أن العضو الذي لا يعمل لفترة من الزمن لدى حيوان ما، سيختفي في أجياله اللاحقة[5]. ولاحظ أن اختفاء الأعضاء العاطلة عن العمل

---

[1] - مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، ط 4 (دمشق، دار الفكر، 2006)، ص 79 .

[2] - مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين ، ط 3 (دمشق ، دار الفكر، 1986) ، ص 76.

[3]- Gustave Le Bon ,Bases scientifiques d'une philosophie de l'histoire,(Paris Ernest Flammarion Éditeur, , 1931), p 275 .

[4] - تشارلز داروين: أصل الأنواع، ترجمة إسماعيل مظهر، د ط (الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، 1991) ، ج 1 ، ص 370 .

[5] - تشارلز داروين: نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ترجمة مجدي محمود المليجي، ط 1 (القاهرة، المجلس الاعلى للثقافة، 2005)، ج 1، ص 138.

من أجسام الكائنات الحية لا يتطلب نفس الزمن الذي استغرقه تكونها، والقاعدة تصدق أيضا على اختفاء الأنواع النباتية والحيوانية، فقال:" هناك أسباب تقنعنا، بأن انقراض عشيرة برمتها من الأنواع، عملية أقصر مدى على وجه عام من عملية تولدها"[1].

و هذا ما نجده عند لوبون، في مجال فلسفة الحضارة، انه يستعمل تقريبا نفس الألفاظ التي وردت عند داروين، من ذلك قوله:" إن زوال الأعضاء يتطلب من الزمن، ما هو اقل جدا من الزمن الذي يقتضيه تكوينها، وكل عضو لا يقوم بوظيفته لا يلبث أن يعجز عن القيام بهذه الوظيفة من فوره"[2]. وكعادته ينقل هذه الحقائق من البيولوجيا، ويسقطها على سلوك الإنسان، فالأمر عنده سيان، إذ لا فرق بين الكائنات الحية، فكلها تخضع لنفس القوانين، وما كان مزاج الناس النفسي، ليشد عن هذه السنن الفيزيولوجية. وبالتالي هذه الصفات النفسية، إن توقفت عن العمل لفترة معينة، فإنها تختفي، واختفاؤها خسارة ليس في مقدور أي كان تعويضها إلا الزمن، فقال:" قد تزول بسرعة قابليات النفس التي اقتضى تكوينها عدة قرون، ولا تلبث الشجاعة، وقوة المبادرة، والإقدام، وروح المخاطرة، وغيرها من الصفات الخلقية، أن تمحي إذا لم يتح لها أن تُمارس، وبذلك تفسر العلة، في وجود انقضاء زمن طويل على الأمة، حتى ترتقي إلى درجة رفيعة من الثقافة، وفي اقتضاء زمن قصير إلى الغاية، حتى تسقط في هوة الانحطاط"[3] . إذا تدهور الحضارة عند لوبون يعود لتفكك الطبع النفسي، وزوال ما يحمله من صفات نفسية مبدعة، ويحدث ذلك عندما يتوقف المجتمع عن ممارسة نشاطه وخلوده للراحة.

كما ركز لوبون على عامل أساسي يساهم بشكل كبير في تحلل الصفات النفسية الفعالة التي ساهمت في ظهور الحضارة وهو اختلاط الأجناس. لاسيما إذا وقع الامتزاج بين شعوب غير متجانسة، ويقصد بالتجانس هنا تقارب هذه المجتمعات في ردود أفعالها أمام التحديات التي تواجهها. هذا

---

[1] - تشارلز داروين: أصل الأنواع، مرجع سابق، ج 2 ، ص 219 .

[2] - غوستاف لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم، مصدر سابق ، ص 171.

[3] - المصدر نفسه، ص 172 .

التجانس يدمره الاختلاط الجنسي الذي قد يحدث بين عناصر المجتمع وعناصر قادمة من مجتمعات أخرى. وفي هذه الحالة يصبح دور الوراثة عكسي، فبعدما كانت الوراثة تقوم بدورها الايجابي في تحسين النسل يبدأ دورها السلبي، فتعمد إلى تحطيم المجتمع من الداخل. إن التدمير الذي يحدثه الاختلاط الجنسي عند لوبون يصل إلى حاملات الصفات النفسية، وهي الجينات، التي تتعرض للتعديل الوراثي عن طريق التوالد، والنتيجة هي زوال صفات الطبع النفسية التي كانت هي العامل الأساسي في الإبداع.

هذا ما لاحظه لوبون من النظر في أبحاث القائمين على دراسة التهجين في عالم الحيوان، ومن استقرائه لتاريخ الحضارات. إن الصفات الجسمية والنفسية تتأثر بواسطة الاختلاط الجنسي الذي يقع بين الأنواع، خاصة إذا كانت متباينة في القوة والضعف. لهذا كان يعتقد أن سبب انهيار الحضارة الرومانية، لا يعود لأسباب عسكرية، وإنما سببه اختلاط الأجناس، فسقطت عندما سمحت باستقبال الأجناس الأخرى بين مواطنيها، وفي هذا قال:" البحث الدقيق في الوقائع يثبت من جهة أن الغارات التي أوجبت سقوط الإمبراطورية الرومانية كانت سلمية لا حربية. فلم يمض وقت طويل حتى فقد الروماني الخصال التي كان يتمتع بها أسلافه"[1]. وهذا بسبب التزاوج الذي حدث بين الوافدين والسكان الأصليين، إلا أن هذه الآراء لم يبررها العلم.

ولطالما حذر لوبون من خطر المهاجرين على الحضارة، ولو انه كان يدرك صعوبة إيقاف هذه الظاهرة. فذكر إحصائية تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر، بلغ فيها عدد المهاجرين إلى الولايات المتحدة ما بين سنتي 1880 و 1890م ستة ملايين، وذكر أن شيكاغو الأمريكية، يسكنها الربع فقط من الأمريكيين، والباقي مهاجرون من أصول مختلفة[2] وهذا يكشف مدى استفحال هذه الظاهرة، التي تعمل على تفكيك الطبع النفسي للمجتمعات المتقدمة.

ولهذا كان يصرح بكراهيته للمهاجرين وأنهم يمثلون بالنسبة له وباء، ويرى أن خطرهم اشد من الغارات العسكرية، وأن

---

[1] - غوستاف لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم، مصدر سابق، ص 134.

[2] - المصدر نفسه، ص 138 .

الدمار الذي يحدثونه شامل، لأنه يمس الطبع النفسي للمجتمع الذي استغرق أجيال وهو يعمل على إخراجه بهذه الصورة فقال : " إن أسوأ المصائب في ميادين القتال أخف هولا من مثل تلك الغارات "[1]. ويقصد بالغارات نزوح المهاجرين، الذي يتسببون في تحطيم الصفات النفسية التي ورثها المجتمع عن أجياله السابقة عن طريق التزاوج، كاشفا عن روح عنصرية، فشلت في حجبها كل المفاهيم والمصطلحات العلمية التي كان يحرص على ظهورها في مؤلفاته. وها هو يؤكدها أكثر عندما ذكر أنه لا خطر من الهجرة إذا كانت تتم بين الشعوب المتجانسة، فالشعوب الاسكندينافية التي تهاجر إلى الولايات المتحدة لا تشكل أي خطر على هذه الأمة، بل يمكنها أن تعزز الإبداع الحضاري هناك.

لهذا نجده يحذر انجلترا والولايات المتحدة، من مغبة السماح بتوافد العناصر الأجنبية من أسيا وإفريقيا، وحتى من جنوب أوربا إلى أراضيها، ويعتقد أنه إذا استمر زحف هؤلاء النازحين، فإن الأمة التي تستقبلهم، سيصيبها ما أصاب روما قديما. وتوقع أن الولايات المتحدة ستشهد حركات انفصالية على المدى القريب إذا استمر قدوم المهاجرين إليها[2]. لذلك نصح باستعمال كل الأساليب لوقف زحف هؤلاء، بما فيها التصفية العرقية. ولا يمانع في ضربهم بالمدافع الرشاشة بلا رحمة إن اقتضى الأمر[3]وقد ظهرت هذه الأفكار كممارسات عملية عند الزعيم النازي هتلر الذي قال:" إن عالما تجتاحه سلالة من الزنوج لا بد له من الاضمحلال بعد إن تشوه فيه مفاهيم الحق والجمال"[4]. لذلك كان يعمل على منع كل اختلاط بين الأجناس في ألمانيا، وعدم الالتفات للدعوة التي تطالب بإزالة الحواجز الفاصلة بين الشعوب.

ولم تتراجع هذه الأفكار المعادية للمهاجرين، بل تصاعدت أكثر في المجتمعات الغربية، خاصة مع بداية القرن الواحد والعشرين. و ها هي أوروبا وأمريكا الشمالية في عصرنا تجعل

---

[1] - غوستاف لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم، ص 139 .

[2] -Gustave Le Bon : Bases scientifiques d'une Philosophie de l'histoire ,p 143 .

[3] - غوستاف لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم، مصدر سابق، ص 138.

[4] - أدولف هتلر: كفاحي، دار الكتب الشعبية، بيروت، ط 2، 1975 ، ص 61 .

مشكلة الهجرة في مقدمة اهتماماتها، وهي في عملية بحث متواصل عن السبل الكفيلة بمنعها. وانخرط في هذه العملية رجال السياسة والعلم ومن هؤلاء صمويل هنتنجتون الذي يرى في المهاجرين مصدر تهديد للغرب[1]، ويعتقد أن الاختلاف بين الحضارات، والثقافات ليس عنصر ثراء، وإنما هو سبب للمواجهة بين الأمم، ويمثل تهديدا مباشرا للولايات المتحدة والغرب[2]، فقال :"في العالم الناشئ لن تكون العلاقات بين الدول والجماعات التي تنتمي إلى حضارات مختلفة علاقات وثيقة، بل غالبا ما تكون عدائية"[3]، لذلك نجده يحذر من الهجرة مثلما فعل لوبون من قبل فقال:" عندما يفشل الاستيعاب أو الاندماج في مثل هذه الحالة ستصبح الولايات المتحدة دولة متشققة أو مصدوعة مع كل ما يتبع ذلك من احتمالات الصراع والتفكك الداخلي" [4]. معيدا بذلك في نهاية القرن العشرين، ما قاله لوبون في نهاية القرن التاسع عشر.

ونظرا لتعذر منع الاختلاط الجنسي يتوقع غوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب" قُرب زوال الحضارة الغربية، وتنبأ بأن تسطع شمس الحضارة هذه المرة من الشرق، والسبب أن الغرب استنفد الشروط النفسية للإبداع، في حين مازال هذا النشاط كامنا في أمم الشرق الكبرى. ولن تطول غفوة هذه الأمم الشرقية لقد دنا وقت يقظتها[5]، وهنا نجده يوجه تحذيرا للغرب يقول فيه "أرى على أبنائنا أن يقوموا بعمل جدي إذا أرادوا البقاء قادة للعالم زمنا آخر، وعدم الوقوع بسرعة في الهوة الأزلية التي يجرّ تطور الأمور الناس والدول إليها "[6]، ومن قوله هذا، يتضح انه لا يطمح في استمرار الحضارة الغربية للأبد، ولكنه يتمنى لو يستطيع الغرب، أن يظفر بفترة أطول

---

[1] - صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، ط 2، (القاهرة، دار سطور للنشر والتوزيع، 1999) ، ص 320 .

[2] - محمد العربي بن عـزوز: زمـن هنتنغتـن؟ صـدام الحضـارات و نهايـة التاريخ، ط 1 (القاهرة، دار النهضة العربية ، 2009)، ص 44 .

[3] - صمويل هنتنجتون: صدام الحضـارات، إعـادة صـنع النظـام العـالمي، مرجع سابق، ص 293 .

[4] - المرجع نفسه، ص 493 .

[5] - غوستاف لوبون: حضارة العرب، مصدر سابق، ص 707 .

[6] - المصدر نفسه، ص 707.

قبل الاندثار النهائي، والاستسلام لسنة الطبيعة، فما بعد الحياة إلا الموت. لأن " الزمن يبتدئ بعمله الآخر أي التدمير، هذا التدمير الذي لا تنجو منه لا الآلهة ولا البشر، فبعد أن تصل الحضارة إلى مستوى معين من القوة والتعقيد، فإنها تتوقف عن النمو والكبر، وما أن تتوقف عن الكبر حتى تصبح مدانة بالانحطاط السريع، وعندئذ تدق ساعة الشيخوخة دون إبطاء"[1]. ومنه كل التحذيرات التي أطلقها، وكل التدابير التي نصح بها الأمم المتحضرة لا تعدو أن تكون مجرد محاولات يائسة، قد تضيف لهذه الحضارة أو تلك عمرا إضافيا، لكن لا يمكن أن تحقق لها الخلود. لأن الحضارة لدى بعض فلاسفة التاريخ، لا تختلف في مسيرة حياتها عن الكائنات الحية، بحيث سينتهي أمرها مهما بلغت من القوة والعظمة إلى الانهيار التام والفناء، تاركة المجال لغيرها من الحضارات، ولن يحول بينها وبين هذا المصير أية إجراءات أو تدابير.

ومهما كانت درجة الاهتمام بالحضارة، والعمل على حفظها من الانهيار، فإن غوستاف لوبون، يعتقد أنه سيأتي يوم ويصيب الحضارة القائمة، ما أصاب الحضارات السابقة، وتمتد إليها أيادي الفناء الذي لا يميز بين الكائنات[2]، وهذا يعني أنه يذهب إلى القول بالانهيار الحتمي للحضارة. وحتى في اعتقاده هذا، كان حريصا على أن تكون مبرراته ذات طابع علمي. فلما كانت الوراثة عنده تعمل على منع استمرار التفاوت بين الأفراد إلى مالا نهاية، فإنها ستعمل على الحد من استمرار التفاوت بين المجتمعات إلى مالا نهاية أيضا. إي أن الحضارة أمام قانون بيولوجي، يعمل كجهاز يضبط الأفراد داخل المجتمع، ويضبط المجتمعات بنفس الطريقة التي يتعامل بها مع عالم الحيوان والنبات، وفي هذال قال:" إن النبات عندما يتضخم فلا يلبث أن يموت أو يعود إلى مثاله المتوسط، وكذلك الإنسان دائما يميل إلى مثاله المتوسط"[3]. ويعني بذلك ان تقدم الانسان لا يمكن ان يواصل دون توقف، ولا يمكن أن تحافظ الحضارة على بقائها إلى الأبد مع وجود هذه القوانين السيكوبيولوجية.

خاتمة

---

[1] - غوستاف لوبون: سيكولوجية الجماهير، مصدر سابق، ص 198.

[2] - غوستاف لوبون: حضارات الهند، مصدر سابق، ص 97 .

[3] - غوستاف لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم، مصدر سابق ، ص 59 .

إن التفسير الذي قدمه غوستاف لوبون في موضوع سقوط الحضارة، لا يتفق مع النظريات التي ترد انهيارها للعوامل الخارجية، سواء كانت هذه العوامل جغرافية وما يتصل بها من تضاريس صعبة ومناخ غير ملائم، أو كان المقصود بها عوامل البيئة الاجتماعية التي تظهر في صورة عدوان خارجي أو اجتياح عسكري. وبما انه من الفلاسفة الماديين فإنه لا يقر أيضا بوجود قوى مفارقة تمنح البشر السعادة أو تصب عليهم الشقاء بقدر امتثالهم لأوامرها أو مخالفتهم لها، بمعنى انه لا يرد سقوط الحضارة لتراجع العناية الإلهية، وبذل كل هذه النظريات حاول أن يوجه الاهتمام إلى العوامل الداخلية الأكثر اتصالا بالإنسان.

وهذا بعد أن تبين له أن السبب الأساسي في انهيار الحضارات هو نفسه العامل الذي شيدها، ويعني به الطبع النفسي للشعوب الذي يتكون عنده من صفات نفسية فعالة متوارثة عن الأسلاف. إلا أن هذا العامل الذي منح أصحابه من قبل القدرة على الإبداع، مُعَرضٌ للتحلل والزوال في ظل ظروف معينة. وعندما اخذ في شرح الأسباب التي تؤدي إلى تفكك الطبع النفسي ومن ثم سقوط الحضارة، نجده قد اقترب كثيرا من النظرية العرقية، وهو الذي أكد مرارا بأنه لا يتفق مع التفسير الذي يُسنِد التفوق والإبداع لجنس بشري دون آخر. وإذا تجاوزنا هذا فإن الرأي الذي خلص إليه، يمكن استغلاله في دعوة المجتمع لضرورة التوقف عن اتهام العوامل الخارجية، والادعاء بأنها سببٌ في كل ما يحلبه من كوارث، وحثه على البحث في نفسه عن الأسباب التي جعلته يتراجع إلى الخلف.

المصادر والمراجع

المصادر

1 ـ غوستاف لوبون: اختلال التوازن العالمي، ترجمة، صلاح الدين وصفي، مطبعة العرب للبستاني، مصر، د ط، 1928 .

2 ـ غوستاف لوبون: الآراء والمعتقدات، ترجمة عادل زعيتر، المطبعة العصرية، القاهرة، ط 2، 1946.

3 ـ غوستاف لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف، مصر، د ط، 1957 .

4 ـ غوستاف لوبون: حضارات الهند، ترجمة، عادل زعيتر، دار العالم العربي، القاهرة ، ط 1، 2010 .
5 ـ غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار العالم العربي، القاهرة ، ط 1، 2009 .
6 ـ غوستاف لوبون: روح الاجتماع، ترجمة احمد فتحي زغلول باشا، وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر، د ط ، 2007 .
7 ـ غوستاف لوبون: روح التربية ، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية القاهرة، د ط، 1949.
8 ـ غوستاف لوبون: روح الثورات والثورة الفرنسية، ترجمة عادل زعيتر، المطبعة العصرية، مصر، ط 2، 1934
9 ـ غوستاف لوبون: سيكولوجية الجماهير، ترجمة، هاشم صالح ، دار الساقي، بيروت، ط 3، 2011 .
10-Gustave Le Bon ,Bases scientifiques d'une philosophie de l'histoire, Ernest Flammarion Éditeur, Paris , 1931.
11- Gustave Le Bon: Enseignements psychologiques de la guerre européenne , Ernest Flammarion Éditeur , Paris , 1915 .
12- Gustave Le Bon , La Révolution française et la psychologie des révolutions , Ernest Flammarion Éditeur, Paris , 1916 .

المراجع :

01ـ إبراهيم فريد الدر: الأسس البيولوجية لسلوك الإنسان، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط 1، 1983.
02ـ ابن منظور: لسان العرب المحيط، المجلد الثاني، دار لسان العرب، بيروت، 1970 .
03ـ أدولف هتلر: كفاحي، دار الكتب الشعبية، بيروت، ط 2، 1975 .
04ـ ارنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، د ط ، 2011 ، ج 1.
05ـ الجرجاني: التعريفات، مؤسسة الحسني، المغرب، ط 1، 2006 .

06ـ تشارلز داروين: نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ترجمة مجدي محمود المليجي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 1، 2005، ج 1.
07ـ تشارلز داروين: أصل الأنواع، ترجمة إسماعيل مظهر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د ط، 1991، ج 1
08ـ جون جاك روسو: إميل، ترجمة نظمي لوقا، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ، د ط ، 1958.
09ـ حلمي المليجي: علم النفس المعرفي، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1، 2004 .
10ـ خوسه أورتغا إي غاسيت: تمرد الجماهير، ترجمة علي إبراهيم أشقر، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ط 1، 2011.
11ـ دانييل جولمان: الذكاء العاطفي، ترجمة ليلى الجبالي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د ط، 2000 .
12ـ سامي الدروبي: علم الطباع، المدرسة الفرنسية، دار المعارف، القاهرة، د ط ، 1961.
13ـ سيغموند فرويد: الطوطم والحرام، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت، د ط، د ت.
14ـ سيغموند فرويد: علم نفس الجماهير، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة، بيروت، ط 1، 2006.
15ـ صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، دار سطور للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 2 ، 1999.
16ـ عبد الرحمن محمد عيسوي: علم النفس الفسيولوجي، دراسة في تفسير السلوك الإنساني، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، مصر، د ط، 1989 .
17ـ كارل غوستاف يونغ: البنية النفسية عند الإنسان، ترجمة نهاد خياطة، دار الحوار للنشر والتوزيع، دمشق، د ط، 1994.
18ـ مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط 5، 1986.
19ـ مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط 4، 2006 .

20 ـ مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمـة عبـد الصـبور شـاهين، دار الفكر، الجزائر، دمشق، ط 3، 1986 .
21 ـ محمد العربي بن عزوز: زمن هنتنغتن؟ صـدام الحضـارات ونهاية التاريخ، دار النهضة العربية، القاهرة، ط 1، 2009 .
22 ــ محمـد بـن عمـر بـن الحسـين الـرازي: كتـاب الفراسـة، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د ط، 2006.
23-René Le Senne: traité de caractérologie , Presses Universitaires de France , Paris, 7e édition , 1963 .